القسم الثاني: قضايا ورؤى

◆ ما هو الجمال؟

د. رشيد فوزي

ملخص:

يناقش المقال مسألة تعريف الجمال تعريفا قيميا باستعراض أهم الخلاصات من دراسة الموروث البشري في جانبيه: المادي (أشكال فنية معبرة عن الجمال) والكتابي (نصوص معبرة). كما يحاول شرح منظور الرقي كمعيار للجمال في المذاهب الفكرية المعاصرة، فالجميل هو الأرقى والأكمل والأكثر نفعا وديمومة وإحساسا بالحياة.

Résumé:

Cet article discute la question de définir la beauté comme valeur en exposant les principales conclusions concernant l'étude du patrimoine humain en son profil matériel (figures reflétant la beauté) et son profil écrit (textes expressifs). Il tend aussi à expliquer l'évolution comme un paramètre de beauté dans les différentes idéologies contemporaines; d'une façon à conclure que le "beau" est tout ce qui est le plus supérieur, parfait, bénéfique, persistant et qui a le plus le sens de la vie.

لو استعرضنا الآراء والنظريات التي طرحت بخصوص الجمال سوف يبدو لنا أنها جميعا قد أصابت ولا شك شيئا من حقيقة الجمال، لأن تلك الآراء والنظريات قد نبعت بالتأكيد نتيجة تذوق أصحابها للجمال، إلا أن اختلاف هذه الآراء والنظريات يعتبر بحد

ذاته الدليل الأكيد على عدم تمكن أصحاب تلك الآراء من إصابة كبد حقيقة الجمال، وإلا لما اختلفت في تفسيرها لمفهوم الجمال. وفي أدناه نقدم بعضا من هذه الآراء لنكون على بينة بالاختلافات الموجودة بينها.

ففيما يخص سكان بلاد وادي الرافدين القدامى، فليس لديهم اجتهادات متخصصة في موضوع الجمال ولكنهم مع ذلك رأوا الجمال في الأشياء التي تخدم حياة الإنسان والحياة بصورة عامة، حيث أن العلامة المسمارية التي كتبت بواسطتها كلمة «جمال» كانت تعبر أيضا عن المفاهيم التالية: قوة الحياة، الحلال، والوقار، النبل، اللقب الرفيع وعضو التكاثر الأنثوي(1). وهذه المعاني المختلفة تمكننا من الافتراض بأن سكان العراق القديم قد وجدوا الجمال في الصحة والأخلاق وفي العيش الكريم وفي السيادة وفي إشباع الغريزة الجنسية، أي استمرارية النوع.

وفيما يخص اليونانيين فالمعلومات المتوفرة تؤكد على أنهم لم يتمكنوا من تقديم مفاهيم جديدة، ولكنهم حاولوا صياغة مفهوم الجمال في منطوق محدد. وخير شاهد على ذلك هو سقراط، حيث له رأيان في موضوع الجمال؛ الأول ينص على أن «الجميل هو الملائم والذي يحقق الغاية المبتغاة» أما الرأي الثاني فينص على أن «الجميل هو ما يحبه المرء» ومفهوم هذين التعريفين للجمال هو مفهوم عام ولا يختلف في جوهره كثيرا عن مفهوم الجمال لدى سكان بلاد وادي الرافدين. أما «كانت» فيعتقد أن الجمال هو الموضوع الذي نحس إزاءه بلذة نزيهة تماما، أي نستمتع بالشيء لذاته، لا لمنفعة نبتغيها من روائه. أما أنصار علم الجمال المادي المعاصر فإنهم يميلون إلى ربط القيم الجمالية بالقيم الأخلاقية. بينما أنصار علم الجمال المثالي يعتقدون بأن الجمال ليس سوى إحساس ذاتي.

وفيما يخص نظرة الاشتراكيين للجمال فإنها تتلخص بالنتيجة التي توصل إليها الباحث الروسي «نيكولاي تشيرنيشيفسكي» والتي مفادها «أن الجمال هو الحياة كما ينبغي لها أن تكون من وجهة نظرنا. والجميل هو ذلك الشيء الذي يكشف عن الحياة في

ذاته أو يذكرنا بالحياة»، علما أن المدارس الجمالية السوفيتية على اختلافها تبدي اعتزازا بتعريف «تشيرنيتشيفسكي» للجمال مدعية أنه أكمل التعريفات التي سبقته، لأنه يتناول الجمال من جانبيه الموضوعي (بسبب قوله: الجمال هو الحياة) والذاتي (لأنه قال: من وجهة نظرنا)، وعلاوة على ذلك فهو لا يحصر الجمال في إطار معين كما تفعل المدرسة الهيكلية، التي لا تحفل بالجمال خارج نطاق الفنون، بل يشمل كل أوجه الجمال في الحياة(2).

وأما رأينا بخصوص موضوع الجمال، فنعتقد بأن الجمال لا ينحصر بالحياة فقط، بل يشمل التطور كذلك، وما له علاقة بهما، وللجمال أيضا جانبان أساسيان، الأول هو الجانب الموضوعي للشيء والثاني هو الجانب الذاتي لمتحسس الجمال. وفي أدناه سنعرض كل جانب على انفراد وسنحاول توضيح الأسس التي يستند عليها كل جانب منهما.

الجانب الموضوعي للجمال:

فيما يخص هذا الجانب فإنه يستقر حسب اعتقادنا على قاعدة عريضة يمكن تلخيصها بالمنطوق التالي:

«إن الجمال يتمثل بالأشياء التي تديم الحياة وتشعرنا بالتطور، أو التي تحمل في طياتها ما يوحي إليهما، وكذلك الأشياء التي تساعد عليهما».

وبناء على هذا الوصف للجمال فلا بد وأن يتمثل القبح بالأشياء التي تهددنا بالفناء وتشعرنا بالتأخر أو التي تحمل في طياتها ما يوحي إليهما، وكذلك الأشياء التي تساعد عليهما. وبما أن الأشياء في الطبيعة وفي حياتنا نحن البشر قد تكون مزيجا من عنصرين متضادين، أي أحدهما يشعرنا بالحياة والآخر يشعرنا بالفناء، فإن مثل هذه الأشياء تمثل الحد الفاصل بين الجمال والقبح، أي بمعنى أنها ليست جميلة تماما وليست قبيحة أيضا، وكلما يزداد أحد العنصرين في نسبته كلما تنحاز تلك الأشياء إلى

جانب العنصر الكبير، ولذلك نجد في حياتنا وفي الطبيعة أشياء نطلق عليها تسمية «لا بأس بها» أو «جيدة» أو «ليست جيدة» وهكذا. فعندما تكون نسبة شروط الجمال في الأشياء تساوي 50٪ فإن تلك الأشياء تكون من صنف «لا بأس بها» وإذا زادت شروط الجمال عن 50٪ تحول تلك الأشياء إلى أشياء جيدة، وكلما تقترب تلك الأشياء من شروط الجمال المطلقة فإنها تزداد جودة حتى تصل إلى مرتبة الجمال. وكذلك الحال مع مرتبة القبح.

ولبيان هذه الحقيقة بوضوح أكثر لنفترض أن لدينا كرسيا من خشب الصاج ولكنه مفكك الأوصال وممزق القماش والقذارة كثيرة عليه ومرمي في جانب مهمل من الدار، فالكرسي وهو بهذه الحالة لا بد وأن يبدو قبيحا، ولا يستحق أن ننظر إليه. فإذا قمنا أولا بإعادة تركيب أرجله ومسانده فبالتأكيد سيبدو الكرسي ألطف من الهيئة السابقة. وإذا قمنا بتنظيفه وأعدنا طلاءه بالطلاء المناسب فسوف ينتقل الكرسي إلى مرتبة جيدة من مراتب الجمال. وإذا أبدلنا قماشه بقماش جديد فسوف يتحول الكرسي إلى شيء جميل. وإذا ما وضع الكرسي في المكان المناسب فسوف يزداد جماله. وكذلك الحال مع الأمور الأخرى ومع الإنسان أيضا.

والآن سنحاول القيام بتحليل عناصر تعريف الجانب الموضوعي للجمال كي نكون على بينة من حقيقته الفعلية:

1 – كل شيء يديم ويشعر بالحياة:

مادام الإنسان هو الذي يشعر بالجمال أكثر من بقية الكائنات الحية وهو أيضا المستفيد منه بالدرجة الأساس، فلا بد وأن المجالات التي توفر الغذاء للبشر أي التي توفر الحياة الآنية لهم تكون أجمل في نظرهم من المجالات التي يشح فيها الغذاء أو ينعدم. وما دام الإنسان بحاجة ماسة إلى استمرارية النوع فإن ما يوفر له هذا الهدف لا بد وأن يكون جميلا وما عداه فلا قيمة كبيرة له عنده. وبناء على ذلك برز في حياتنا القول المشهور الآتي: «الماء والخضراء والوجه الحسن».

وهذا القول وإن يبدو للبعض قولا اعتياديا إلا أنه يتضمن اعترافا صريحا على أن الحياة هي في مقدمة الأمور وهي الجمال، وذلك من خلال ذكره للماء قبل الخضراء، لأن الإنسان قد يصبر على الجوع أياما ولكنه لا يستطيع أن يصبر على الماء نفس المدة، ولأن الماء أساس النبات وأساس كل شيء، وذكره للخضراء قبل الوجه الحسن، لأن الإنسان يحتاج إلى الغذاء قبل الجنس، لأن الغذاء يديم الوجود الآني للكائن الحي، وبعد ذلك يأتي دور الجنس الذي يحقق لنا استمرارية النوع.

هذا وقد يسأل البعض ويقول إذا كان الجمال مرتبطا بالحياة، والحياة تعتمد على استمرارية النوع، فلماذا لا يجد الرجال جميع النساء القادرات على الإنجاب بدرجة واحدة من الجمال؟ وإذا كان هذا غير ممكن فما هو السبب إذن الذي يجعل امرأة أجمل من أخرى ورجلا أوسم من الآخر وشيئا أجمل من شيء؟

للجواب على ذلك نقول: ما دامت الأمور التي تشعرنا بالحياة تكون جميلة فلا بد أن تكون المواصفات التي تمكن الجسم البشري من العيش بصورة طبيعية ومريحة نسبيا تقع في صف الجمال، والصفات المعاكسة لها تقع في صف القبح. ومن أبرز هذه المواصفات هي تكامل أعضاء الجسم الإنساني. فلو افترضنا امرأتين أو رجلين على درجة واحدة من جمال المظهر، ولكن أحدهما يمتلك خللا في أحد أعضاء جسمه، فإن هذه المرأة أو هذا الرجل سيكون بالضرورة أقل جمالا من صاحب الأعضاء المتكاملة، لأن صاحب الأعضاء المتكاملة هو أقدر على تلبية متطلبات الحياة من الآخر غير المتكامل الأعضاء. ومن المواصفات المهمة الأخرى التي يحتاجها الجسم البشري والتي تحسب في خط الجمال هو التطابق الكلي بين النصفين الأيمن والأيسر من الجسم، أي أن يحتوي الجسم على التناظر. وضرورة هذا التطابق لا بد وأن سببه الجاذبية الأرضية، لأن التطابق بين نصفي الجسم يساعده على التوازن وهو يمارس متطلباته الحياتية، بينما عدم التطابق يخل في الموضوع. ومما يؤكد على أن تطابق نصفي الجسم سببه الجاذبية الأرضية هو أن جميع الأجسام المتحركة، أي المتنقلة على الأرض تمتلك هذا التماثل سواء كانت تلك الأجسام كائنات حية أو من صناعة البشر مثل السيارة والطيارة والعربة وغيرها من الأجسام المتنقلة.

وفضلا عن التناظر بين نصفي الجسم هناك أمور أخرى لها علاقة بالجمال أو بنقيضه كطول الجسم وقصره، فإذا كان الجسم قصيرا يكون أقل جمالا من الجسم الطويل، وإذا زاد الطول عن معدل أطوال البشر يكون أيضا خارج متطلبات الجسم الاعتيادية. والسبب في ذلك يعود طبعا إلى أطوال أجسام الكائنات الحية سواء كانت إنسانية أو حيوانية أم نباتية تتناسب وحاجة تلك الكائنات من أجل البقاء، ولذلك إن طالت أجسام أو قصرت عن الحد الطبيعي يعني ذلك أنها لا تمكن أصحابها من أن تحصل على غذائها وتؤدي واجباتها الحياتية بسهولة، ولذلك لا تبدو مثل هذه الأجسام جميلة في نظرنا. والسبب الذي يتطلب أن تكون أطوال الكائنات الحية بنسب تكاد تكون ثابتة هي الجاذبية الأرضية أيضا، لأن الكائنات الحية وبضمنها الإنسان الذي لا يقوم بعمل معين ما لم يكن للجاذبية الأرضية تأثير على ذلك العمل، ولهذا فإن كانت أطوال أعضائه تناسب مع ما تعرضه الجاذبية الأرضية عليها من قوانين، تكون تلك الأعضاء جميلة لأنها تخدم متطلبات حياة الإنسان.

والنسب الذهبية التي أشار إليها ليوناردو دافنشي ماهي إلا النسب المثالية لأعضاء الجسم البشري لكي يؤدي متطلبات حياته تحت تأثير الجاذبية الأرضية ومن خلال الصور المرفقة يبدو أنها ناتجة عن تقسيم المسافة أب، المحصورة ما بين قمة رأس الإنسان وسرته على المسافة ب ج الممثلة للمسافة بين السرة والقدم. والناتج يساوي المسافة ب ج مقسومة على أج، أي أن:

أب / ب ج = ب ج / أب(3).

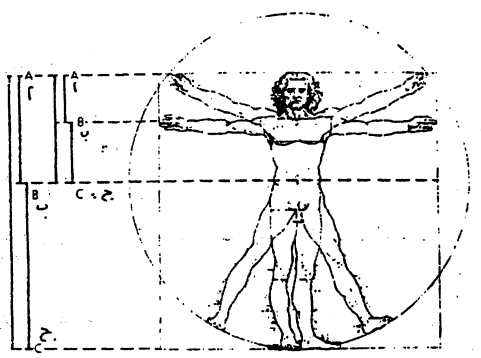

الصورة من رسم ليوناردو دافينشي نفسه

وبناء على ذلك فقد أخذ فنانو عصر النهضة الأوروبية الذين مارسوا الفن الواقعي ينقبون عن أسرار هذا التكامل بين أعضاء الجسم البشري، ولذلك قالوا: إن الجمال في بنية الأعمال الفنية الإغريقية والرومانية، ولا سيما في النحت والعمارة، إنما يرتكز إلى أنماط معينة من العلاقات بين أجزاء العمل الفني، ولهذا برزت عندهم مفاهيم «التناظر – Symmetry» و«التوازن – Equilibrium» و«الانسجام – Harmony» و«التناسب – Proportion».

وهذه المفاهيم الجمالية التي توصل إليها النحاتون والرسامون الإيطاليون من خلال فنون العالم الكلاسيكي القديم ما هي في حقيقتها إلا تناسب أعضاء الجسم مع ما تفرضه الجاذبية الأرضية على الجسم وخاصة التناظر بالنسبة للأجسام المتحركة على الأرض.

2 – كل شيء يشعرنا بالتطور:

ما دامت الحياة تخضع لقانون التطور، وإن الإنسان عبر تاريخه الطويل قد سار ولا يزال يسير وراءه ويسعى إليه باستمرار، لذلك نجد بأن كل ما هو متطور أجمل بالضرورة من الأشياء التي هي أقل تطورا منه فالحدائق أجمل من الخرائب، غير أن الحدائق المهندسة جيدا لا بد وأن تكون أجمل في نظر الإنسان من الحدائق التي لم تمتد إليها يد الإنسان، لأنها لا تحتوي على الماء والخضراء فقط وإنما على عنصر التطور المتمثل بهندسة الحديقة. والنظافة ولا شك أجمل من القذارة، لأن النظافة صفة تطويرية والأشكال الهندسية أجمل من الأشكال الاعتباطية، التي لا شكل واضح ومعلوم لها، لأن الأشكال الهندسية ترمز إلى النظام وإلى الإنسان وإلى تطوره أيضا، بينما الأشكال الاعتباطية لا ترمز إلا إلى الفوضى وإلى المجهول. وكذلك الحال مع كل السلوكيات البشرية الأخرى، فأنها تبدو أكثر جمالا من حقيقتها أن رافقها شيء من التطور.

ومما يزيد التأكيد بهذا الخصوص هو الإنسان نفسه، حيث من يمتلك مواصفات تجعله متطورا كثيرا عن مواصفات المرحلة الحيوانية، تعتبر مواصفاته هذه جميلة بالضرورة، لأن العلم الحديث قد أكد على أن الإنسان متطور عن إحدى سلالات القردة العليا، ولذلك كلما امتلكت المرأة والرجل مواصفات مغايرة لمواصفات القردة، وجدنا تلك المواصفات جميلة.

فالقردة والغوريلات على سبيل المثال ذوات عيون صغيرة ورقبة قصيرة وأنف كبير وفم كبير بلا شفاه ممتلئة ويكومها الشعر الخشن، ولذلك عندما تمتلك المرأة عيون كبيرة ورقبة طويلة وأنف صغير وفم صغير بشفاه ممتلئة وجسمها خالي من الشعر تكون بالضرورة جميلة في نظرنا، وكذلك الحال مع الرجال، ما عدا فارق واحد يتمثل بضرورة امتلاك الرجل مواصفات القوة والخشونة، تلك المواصفات التي يحتاجها دوره في الحياة، ولذلك إن كسي الشعر بعض مناطق جسمه فليس ذلك قبحا، بينما خلو جسمه من الشعر قد يذكر بالأنوثة وليس بالرجولة.

هذا وكثيرا ما نجد رجالا ونساء يمتلكون هذه الصفات التي فرضتها محبتنا للتطور ولكنهم مع ذلك ليسوا أجمل من آخرين قد تعوزهم بعض هذه الصفات وسبب ذلك يعود إلى التداخل أو التضارب الذي يحدث بين الصفات المذكرة بالغناء والصفات الدالة على التطور في هؤلاء الرجال أو النساء، فلو أخذنا على سبيل المثال امرأتين، الأولى تمتلك كل المواصفات الدالة على التطور ولكنها بنفسية كئيبة، فأنها حتما لا تكون أجمل من الثانية، التي تعوزها بعض الصفات الدالة على التطور ولكنها بنفسية مستبشرة بالحياة. وهذه الحقيقة تؤكد على أن العوامل المذكرة بالحياة لها تأثير أقوى على نفوسنا من تأثير العوامل الدالة على التطور.

تمثال من منطقة ديالي،
حوالي 2500 ق.م يؤكد على
كبر العين وصغر الأنف
والفم وطول الرقبة

3 – الأشياء التي تحمل في طياتها ما يوحي إلى الحياة:

فيما يخص هذه الفقرة نأخذ الألوان كمثل عليها، لأننا نجد الألوان جميلة، بينما هي بحد ذاتها لا تفيد الحياة ولا التطور بأي شيء كان، غير أن جمالها متأتي من كونها توحي إلى الحياة، لأن الألوان توجد بشكل خاص في الزهور، والزهور لا توجد إلا في الأماكن المزروعة وفي الأماكن التي يوجد فيها الماء، فهي إذن توحي إلى الغذاء وإلى الماء، أي إلى الحياة، ولذلك أصبحت الألوان جميلة لا في حياتنا نحن البشر فقط بل في نظر الحيوان أيضا. وبما أن بعض الأشياء في الطبيعة تحتوي على جانبين إيجابيين، الأول له علاقة بالحياة والثاني يوحي إليها، لذلك تكون مثل هذه الأشياء أجمل في نظرنا من تلك التي تشعرنا بالحياة فقط أو توحي إليها فقط، ومثال ذلك اللون البنفسجي، لون الأمل، حيث تبين ذلك من خلال استفتاء قامت به مجلة «ألف باء» مع عدد من المثقفين والفنانين العراقيين حول مفهومهم للجمال. ومن جملة الأسئلة التي كانت ضمن ذلك عن

أجمل الألوان في نظر كل من ساهم في ذلك الاستفتاء. ومما يلفت الانتباه في حينه هو إن 9٪ من الإجابات قد ذكرت اللون البنفسجي، على الرغم من أن أصحابها لم يقدموا التعليل المنطقي لمحبتهم لهذا اللون، ولهذا نعتقد أن محبة هؤلاء الأشخاص إلى اللون البنفسجي تقع خارج نطاق عقلهم الواعي، أي أن سبب هذه المحبة مخزون في العقل الباطن. وهذه الحقيقة تؤكد على أن الإنسان قد أحب هذا اللون في تأريخه القديم وإلا لما خزن هذا الحب في العقل الباطن، كما وأن ظهور أسباب هذه المحبة في الماضي وليس لأسبابها وجود واضح في الوقت الحاضر، فإن ذلك يؤكد على أن الصفة الجمالية الإضافية في اللون البنفسجي هي ليست في صلب اللون ذاته، بل أنها كانت عاملا مساعدا على تذكرة الإنسان بشيء له علاقة بالحياة، ولذلك عندما فقد اللون البنفسجي دوره في تذكيرنا بتلك الجمالية الإضافية، دخلت تلك الذكرى ضمن خزين العقل الباطن كغيرها من الذكريات التي مرت وتمر في حياة الإنسان. وبما أن الصفات المكتسبة من المجتمع تصبح بمرور الزمن وراثية، فإن عقلنا الباطن قد توارث هذه الذكرى من الأجيال التي سبقته.

ولتوضيح ذلك نقول أن اللون البنفسجي يتكون عادة من امتزاج اللون الأحمر مع اللون الأزرق، وما دمنا نعلم أن الطبيعة هي المصور للإلهام الجمالي بالنسبة للإنسان، فلا بد إذن وإن إحدى الظواهر الطبيعية كانت السبب المباشر، الذي جعل هذا اللون يذكر بالإنسان بناحية لها علاقة وثيقة بالحياة إضافة إلى ما تذكرنا به بقية الألوان الأخرى.

وعند النظر إلى الطبيعة والتي تكون الألوان فيها أثناء أوقات اليوم الواحد أو على مداد الفصول الأربعة، نجد بأن اللون البنفسجي يرتبط ارتباطا وثيقا بوقت الغروب، حيث أن الشمس عند المغيب تصبح حمراء اللون، ولذلك يمتزج لونها الأحمر عند الأفق مع زرقة السماء فيتكون اللون البنفسجي وبالأخص في فصل الشتاء عندما تكون السماء مكسوة بغيوم متقطعة، حيث أن اللون البنفسجي يبدو واضحا كل الوضوح على قطع

الغيوم القريبة من الأفق. وهذه الحقيقة تعني أن الجمالية الإضافية لدى اللون البنفسجي لها علاقة بوقت الغروب، ولذلك فإن بداية الغروب كانت تشعر الإنسان بقرب الفترة التي يتخلص فيها من عناء العمل ويعود إلى بيته فيتمتع بالراحة وبتناول طعام العشاء ولقاء الوالدين أو الزوجة والأطفال أو لقاء الحبيبة أو التمتع بلقاء الأصدقاء، ولذلك صار للغروب دون غيره من بقية الأوقات قدرة على تذكير الإنسان بناحية حياتية، أو بالأحرى يذكره بأغلب المقومات الأساسية للحياة، وهذا يعني أنه يؤجج لديه معظم القيم الجمالية(4).

هذا وإذا وضعنا في نظر الاعتبار بأن اللون البنفسجي يبرز أوضح ما يكون على قطع الغيوم عند المغيب، والتي تظهر في السماء عادة في موسم البرد، فإن وقت الغروب في موسم البرد تكون له مكانة أعلى في نفوس الناس من وقت الغروب في فصل الصيف، لأنه لا يعني فقط بداية لوقت الراحة وإنما بداية للخلاص من برودة الجو وخاصة إذا ما علمنا بأن الناس قديما لم يكن بإمكانهم جميعا أن يلبسوا الملابس التي توفر لهم الدفء.

وقبل أن ننهي موضوع اللون البنفسجي يجب أن نضع في حسباننا أن ظروفا معينة تجعل بعض الأشخاص يفضلون لونا على لون، ويبغضون لونا معينا أو أكثر، حيث يتوقف موضوع الحب والكره على ارتباط اللون بالموضوع الذي يثيره في ذهن هؤلاء الأشخاص، فقد يكره شخص لونا معينا لأنه يذكره بحدث مروع وقع في فترة طفولته لإنسان عزيز عليه، وقد يذكر نفس هذا اللون شخصا آخر بحادثة جميلة مرت في حياته، وكذلك الحال بالنسبة للأمور الأخرى التي تقع ضمن الجانب الموضوعي للجمال من غير الألوان.

وبناء على ما تقدم يمكننا الآن القول أن الوردة لا تبدو جميلة في نظرنا لو لم تمتلك القدرة على التذكير بالماء والغذاء، أي الحياة. وهذا يعني أن الوردة ليست جميلة لذاتها بل أن جمالها يأتي من ناحية كونها تذكر بالحياة.

4 – ما يساعد على الحياة:

مما هو معروف أنه من مميزات الفكر الجمالي عند الإغريق هي ميزة البحث عن القيم الأخلاقية وراء مظاهر الجمال. ولبيان علاقة الأخلاق بالجمال نشير إلى أن الأخلاق ما هي في حقيقتها إلا حلول وسط للتوفيق بين ما تدفعنا إليه غرائزنا وبين طبيعة المجتمع الذي نعيش فيه، ومعنى ذلك أن القيم الأخلاقية تمكننا من أن نتعايش مع بقية أفراد المجتمع بسلام واطمئنان، فهي إذن تخدم الحياة كثيرا، ولذلك تبدو جميلة في نظرنا.

ومع هذا فإن جمال الأخلاق هو جمال ثانوي، لأنه لوحده لا يخدم الحياة بل يفعل فعله بعد أن تتوفر شروط الحياة. والشيء نفسه مع الحق الذي يبدو في نظرنا وفي نظر الشاعر «جون كيتس» جميلا أيضا، حيث ختم قصيدته المعنونة «قصيدة غنائية حول جرة إغريقية» بالبيت الذي يقول فيه: «الجمال هو الحق والحق هو الجمال» لأن الحق مثل الأخلاق يخدم الحياة داخل المجتمع ولكنه لوحده لا يحقق الحياة.

والحقيقة ليست الأخلاق والحق وحدهما اللذان يساعدان على الحياة، بل تشاركهما في ذلك كل القيم الاجتماعية الأخرى، كالعدل والإخلاص والوفاء والإنصاف والشرف والصدق والشجاعة والتضحية والفداء وحب المصلحة العامة وغيرها من القيم الاجتماعية الأخرى، لأن الإنسان لم يتوصل إلى هذه القيم الاجتماعية إلا لغرض تمشية حياته داخل المجتمع بصورة أفضل، حيث أن أي مجتمع لا تسود فيه مثل هذه القيم فالحياة فيه لا بد وأن تكون حياة فوضوية. وبناء على ذلك تبدو هذه القيم الاجتماعية جميلة في نظرنا على الرغم من أن عددا كبيرا من البشر لا يلتزم بها أحيانا، ولكنها مع ذلك تبدو جميلة ومقبولة من قبل المجتمع، والشيء نفسه ينطبق على أنظمة الدولة وقوانينها. ومن الجماليات التي تندرج ضمن الصنف الذي يساعد على الحياة هي الفنون بكافة أنواعها، لأن الفنون كما نعلم تحاول أن تمنح الإنسان الأشياء الجميلة، فهي إذن من العوامل التي تساعد على توفير الجمال، أي الحياة لبشر ولذلك آمنت المدرسة الهيكلية بأن الجمال يكمن في الفنون وليس خارجها.

الجانب الذاتي للجمال:

إن هذا الجانب يعتمد على الإنسان الشاعر والمتذوق للجمال، وكذلك الحيوان بالنسبة للعالم الحيواني. وبما أن البشر مختلفو الأعمار ومختلفو المستويات الاجتماعية، فضلا عن اختلاف المؤثرات النفسية على كل واحد منهم، لذلك لا يمكن أن يتحسس الناس جميعا الأشياء الجميلة بمستوى واحد، ولهذا يمكننا القول بأن الرجال عموما لا يرون النساء جميلات بقدر ثابت، وإن هن من الناحية الموضوعية من مستوى جمالي واحد. فالطفل والشاب والرجل الكهل لا يرون المرأة الجميلة بعين واحدة، فلو تصورنا الإنسان محررا ومثلنا المرأة الجميلة بدرجات الحرارة، فالطفل قد يعطي على سبيل المثال 20 درجة مئوية والشباب يعطي 90 درجة مئوية، والرجل الكهل يعطي بالتأكيد قراءة تختلف عن قراءة الطفل والشاب. ومع ذلك فليس كل طفل وكل شاب وكل كهل يعطون باستمرار قراءات متماثلة، الموضوع يتوقف على ما هو متوارث وما هو معاش من قبل كل واحد منهم، فقد يكون البعض قد ولد وهو يحمل في داخله إما حبا عظيما للمرأة أو كرها كثيرا أو يحمل في داخله بين بين. ويتوقف الموضوع أيضا بالنسبة للذين تجاوزوا مرحلة الطفولة على مدى نجاحهم أو فشلهم في مزاملة المرأة، حيث أن هذه الناحية تؤثر على البشر ولا تجعلهم يرون الأمور الجميلة وغير الجميلة بدرجة موحدة. والمنظار ولا شك يختلف فيما بين الناس الطبيعيين والشاذين وبغض النظر عما إذا كان شذوذهم جنسيا أم غير جنسي، علما بأن الإحصائيات العلمية قد أكدت بأن نسبة الشاذين من البشر منذ ولادتهم تساوي 20٪.

هذا وإن النساء لا يرون بالتأكيد في زميلاتهم ما يراه الرجال فيهن، لأن نظرة الرجل إلى المرأة تمثل نظرة محتاج إلى حاجة يتمناها لنفسه، بينما موقع المرأة في نظر زميلتها هو موقع المنافس، ولهذا فإن جمال المرأة لا يبدو بدرجة موحدة من التأثير في نظر رجل وامرأة من مستوى واحد من حيث العمر والثقافة وبقية المؤثرات الأخرى. وكذلك الحال مع نظرة الرجال إلى بعضهم البعض.

ومن الأمور الأخرى التي تؤثر على نظرة الإنسان إلى الجمال تتمثل في وقت راحته وساعة تعبه، إن كان شجاعا أو جبانا، إن كانْ في الأسر أو يمتلك حريته. وتتغير نظرته نحو الجمال إن كان متوفرا له أو شحيحا.

وفضلا على ما تقدم هناك عامل كبير يمتلكه الإنسان، وهذا العامل يؤثر على مدى تذوقه للجمال، وهذا العامل يتمثل بقلق الإنسان الغريزي على حياته.

ومن تأثيرات هذا القلق هو أن الإنسان يشعر باستمرار بأن سعادته ينقصها شيء ما. فإذا كان الغذاء شحيحا عنده يعتقد أن اكتمال سعادته سيكون بحصوله على الغذاء، وإن كان غير موفق من الناحية العاطفية، فيعتقد أن سعادته ستكون عظيمة إذا ما حلت مشاكله العاطفية وكذلك الحال مع بقية متطلبات الحياة.

وما دام هذا القلق يتعلق بحياة الإنسان، لذلك نجد له بداية ولكنه لا يمتلك نهاية على الإطلاق. وبدايته تتمثل في رغبة الإنسان في الحصول على الغذاء أولا، لأن الغذاء هو عماد الوجود الآني للإنسان، ومن بعد الغذاء يتوجه للحصول على الجنس لأن الجنس يحافظ على استمرارية النوع والحياة. أما السبب الذي لا يضع نهاية لهذا القلق، هو كونه قلقا غريزيا. فرغبة الإنسان في امتلاك أية حاجة يشعر أنها تنقصه ويعتقد أن نقصانها هو الذي يقلقه، لا يزيل منه قلقه حتى لو امتلكها فعلا، لأن قلقه كما قلنا غريزي، والغرائز كما نعلم ثابتة في الجسم البشري ولا يمكن إزالتها أو تغييرها، ولكن يمكن تهدئتها إلى فترة، ولهذا السبب بالذات يجد الإنسان أن أمانيه وهي في طريقها إلى التحقيق جميلة جدا، لأن صاحب تلك الأماني يعتقد أن تحقيقها سينقذ نفسه من القلق الذي يعيشه. وبعد أن تتحقق تلك الأماني تقل أهميتها وجماليتها في نظر صاحبها، لأنها لم تتمكن من إزالة ذلك القلق الغريزي من داخله(5).

وهذه الحقيقة بالذات هي التي جعلت من اللون البنفسجي لأن يعتبر على أنه لون الأمل، لأن اللون المذكور كما قلنا يتكون عند الغروب، أي قبل فترة قصيرة من بداية فترة انتهاء العمل والخلاص من عنائه ومن برودة الجو في فصل الشتاء. ففترة غروب الشمس

إذن تحمل أمنية الإنسان إلى الراحة والعودة إلى البيت وهي في طريقها إلى التحقيق، لذلك كانت تلك الأمنية عند الإنسان القديم جميلة جدا. وفي مثل هذه الأماني يكون أمل الإنسان كبيرا في أن ينال ما يتمناه، ولذلك صار اللون البنفسجي معبرا عن الأمل.

ومن أبرز الأمثلة على أن الأماني وهي في طريقها إلى التحقيق أجمل بكثير مما لو تحققت هي قصص الحب التي تحدث بين البشر، فعندما يقع رجل في حب امرأة، فإن هذا الرجل يعتقد وهو في بداية حبه أن حياته لا قيمة لها بدون المرأة التي يحبها وأن السعادة لا توجد إلا معها أو من رضائها عليه.

وعندما تساعد الظروف على أن يتزوج الرجل محبوبته يتغير حبه لها ولا يكون بنفس المستوى الذي سبق الزواج، وليس هذا فقط، بل يبدأ الحب بالهبوط التدريجي ويصل عند البعض أحيانا إلى مرحلة يؤمن فيها الرجل أن سبب تعاسته هي زوجته.

هذا وإن القلق الغريزي الموجود في الإنسان لا يؤثر فقط على الأشياء الجميلة التي يمتلكها الإنسان، بل يمتد تأثيره أيضا إلى الأشياء الجميلة التي لا يمتلكها ولكنها تقع تحت نظره وذلك من خلال «ظاهرة الاعتياد». فلو افترضنا أن حديقة جميلة تقع بين دار أجره أحد الأشخاص وبين مكان عمله، وموقع هذه الحديقة الجميلة سيمكن هذا الشخص من المرور بها يوميا. ومما لا شك فيه أن رؤيته للحديقة لأول مرة تجعله ينبهر لجمالها، ولكن تكرار رؤيته للحديقة تجعله يعتاد عليها بحيث أنه لم يعد يحس إزاء جمالها نفس الإحساس الذي انتابه عندما رآها لأول مرة، ولذلك فإن «ظاهرة الاعتياد» عند الإنسان تجعله لا يشعر بجمال الأشياء باستمرار، ولذلك يلجأ في النهاية إلى تغييرها أو تطويرها.

ومن الظواهر الموجودة في حياتنا والتي تعتمد على ظاهرة الاعتياد وهي قصص الحب التي انتهت بالزواج بين الموظفين والموظفات، حيث أن 99٪ من تلك القصص تحدث بين موظفة وموظف كل واحد منها من شعبة مختلفة أو من دائرة مختلفة ونادرا جدا أن يتزوج موظف موظفة من نفس الشعبة التي يعمل فيها، لأن ظاهرة الاعتياد تجعله لا

يتحسس جمال زميلاته في نفس الشعبة كما يتحسسه من هو من شعبة أخرى، وكذلك الحال مع طلاب وطالبات الكليات فقصص الحب وحالات الزواج تتم في الغالب بين طالب من صف معين وطالبة من صف آخر أو من كلية أخرى.

ومن الأمثلة الأخرى على ظاهرة الاعتياد نجدها في المواصفات التي يميل إليها كل شعب أو مجموعة من شعوب العالم. فالشعوب الأوروبية التي يغلب فيها اللون الأبيض والشعر الأشقر والعيون الزرق، تميل إلى محبة اللون الأسمر والشعر الأسود والعيون السود أكثر من ميلها إلى مواصفاتها هي. والشعوب التي يكثر فيها اللون الأسمر والشعر الأسود والعيون السود تميل إلى اللون الأبيض والشعر الأشقر والعيون الزرق. وهذا الميل إلى المواصفات المعاكسة لمواصفات الأغلبية سببه اعتياد المجتمع على الصفة الغالبة فيه فيميل إلى الصفات النادرة. وكذلك الحال مع الأمورالأخرى وحتى مع الطعام.

فبائع الكباب على سبيل المثال لا يختار لنفسه عندما يجوع مما يبيعه بل يفضل صنفا آخر من الطعام، ولهذا السبب أيضا يقال «إن مغنية الحي لا تطرب».

هل هناك جمال بمعزل عن الحياة؟

لو قلنا ليس هناك جمال بمعزل عن الحياة التي نعرفها على سطح كرتنا الأرضية، نكون بهذا القول قد اعتبرنا هذا الكون الفسيح الذي تبلغ عدد مجراته مائة ألف مليون مجرة، وعدد نجوم كل مجرة مائة ألف مليون نجم، وما فيه من حالات مختلفة للمادة، شيئا جامدا لا تغير ولا تطور فيه، وبالتالي يكون هذا الكون خاليا من القيم الجمالية وغير الجمالية، ولكن هذا أمر غير مقبول، لأن القيم الجمالية أي الإيجابية لأي عالم من العوامل ما هي في حقيقتها إلا الوسائل والأساليب التي تخدم ذلك العالم لتحقيق أهدافه في هذا الكون، وأما القيم غير الجميلة أي السلبية فهي التي تعترض أهداف ذلك العالم.

وفضلا عما تقدم فإن العلم الحديث قد أكد على أن ما نعتبره جمادا فهو لا يخلو من الحياة ولكن الحياة في ذلك الجماد هي من نوع آخر غير الحياة المتمثلة بالإنسان

وبالعالم الحيواني والنباتي. فعلى سبيل المثال أن العناصر في الطبيعة تعتبر بالنسبة لنا من الجمادات، ولكن العلم قد أثبت أنها متطورة عن بعضها البعض، إلا أنها لا تخلو من الحركة والنمو، وما يشهد على ذلك هي الشمس التي نستنير بضيائها ونشعر بالدفء جراء حرارة أشعتها، لأن المعلومات المتوفرة عنها تؤكد، أنها عبارة عن مختبر كبير يقوم بتحويل ذرات الهيدروجين التي تحتويها الشمس إلى ذرات هليوم، وبما أن ذرة الهليوم الواحدة تساوي أقل من أربع ذرات من الهيدروجين، فعندما تتكون ذرة الهليوم فإن الفائض من ذرات الهيدروجين الأربع ينطلق على شكل طاقة(6). وهذه الطاقة هي أساس الطاقة الشمسية، علما أن القنبلة الهيدروجينية مبنية على هذا الأساس.

وبناء على هذا النوع من الحياة الموجودة في النجوم والمجرات فلا بد وأن تكون هناك قيم جمالية بالنسبة للمادة الموزعة في هذا الكون الفسيح. والقيمة الجمالية التي تشترك فيها أرجاء الكون كافة تتمثل على ما نعتقد بالشكل الكروي، حيث أن معظم أجرام هذا الكون كروية الشكل، وإضافة إلى ذلك فإن الشكل الحقيقي لكافة الغازات والسوائل في أرجاء هذا العالم الكبير هو الشكل الكروي. والسبب الذي يجعلنا لا نرى الماء والهواء بشكليهما الحقيقي يعود إلى الجاذبية الأرضية، حيث أنها تضطرهما أن يأخذا شكل الأوعية التي تحتويهما، ولذلك فإننا لو وضعنا الماء والهواء في مكان خال من الجاذبية الأرضية فكلاهما يتحولان إلى شكل كروي تام الاستدارة، ولكي يتأكد القارئ من هذه الحقيقة عليه أن يتذكر الفقاعات التي تنشأ عن الصابون المذاب في الماء، وخاصة تلك الفقاعات التي تطير في الهواء، حيث أنها تكون كروية الشكل تماما. وسبب كرويتها يعود إلى أن الفقاعة ما دامت تطير في الهواء سواء كانت باتجاه الأعلى أو الأسفل تكون عديمة الوزن، أي عديمة الجاذبية، لذلك يأخذ الهواء الموجود في الفقاعة الشكل الكروي ومادة الصابون تحيط كرة الهواء المتكونة.

إن ما يحدث مع فقاعات الصابون الطائرة في الهواء قد حدث أيضا عام 1962م أثناء التحقيق المشترك لسفينتي الفضاء السوفيتيتين «فوستوك- 2» و«فوستوك- 4»، حيث قام

رجلا الفضاء «نيكولاييف» و«بوبوفيتش» بسلسلة من التجارب لاختيار السوائل في ظروف انعدام الوزن، فلاحظا أن السائل الموجود في الدورق الزجاجي المدور لم يتجمع في المركز على هيئة كرة بل أصبح غطاء كرويا للهواء الموجود في الدورق، والذي تجمع على هيئة كرة تماما مثلما تحيط مادة الصابون بالفقاعة الهوائية(7). وإن دلت هذه الحقيقة على شيء فإنها تدل على أن الغاز أو السائل الأخف وزنا يكون في المركز ويحيط به بعد ذلك الغازات والسوائل حسب درجة كثافتها.

وإضافة إلى ما تقدم فإن علم الفيزياء يؤكد على أن الشكل الكروي هو أصغر حجما لأكبر كمية من المادة، ومعنى ذلك أننا لو أخذنا كمية من الطين الاصطناعي وعملناها كروية الشكل فإنها سوف تشغل مساحة في الفراغ أقل من المساحة التي تشغلها نفس الكمية بعد أن تحول إلى شكل مكعب أو هرمي أو أي شكل هندسي آخر، فالشكل الكروي إذن يمثل شكلا اقتصاديا لا تبذير فيه إطلاقا. والاقتصاد حتى بالنسبة للإنسان للعالمين الحيواني والنباتي ناحية جمالية أيضا، لأن التبذير في الغذاء يهدد الحياة والاقتصاد به يساعد على إدامتها. فالاقتصاد بصورة عامة هو صفة جمالية دون أدنى شك ولكن جمالها لا نراه بالعين بل نحسه وندركه إدراكا.

وإذا استخدمنا الشكل الكروي في وسط فيه جاذبية، كما هو الحال على الكرة الأرضية، فهو أيضا أكثر الأشكال حرية في الحركة، ولذلك نجد الأشكال الكروية والدائرية التي هي مقاطع من الأشكال الكروية تستخدم بشكل أوسع من بقية الأشكال الأخرى، فالمصانع والوسائط المتنقلة لا تخلو من الدوائر والكرات. وبناء على ذلك يمثل الشكل الكروي شكلا اقتصاديا من جهة وعمليا من الجهة الأخرى. وهذه في الواقع مواصفات تمتاز بها أيضا الأشياء الجمالية عند الإنسان، ولذلك نعتقد أن الشكل الكروي هو الشكل الجمالي المطلق في هذا الكون، لأن الإنسان والعالمين الحيواني والنباتي لا ينفصلان عن المادة في الطبيعة.

واستنادا إلى هذه الحقيقة فإننا نخرج بنتيجة غير النتيجة التي طرحها العالم المعروف «فرويد» بخصوص الشكل الكروي، حيث اعتقد فرويد بأن الإنسان بصورة عامة

ومعشر الرجال بصورة خاصة يميلون إلى الشكل الكروي لأنه يذكرهم بمفاتن المرأة، أما نحن فنعتقد بأن الله عزوجل قد جعل مفاتن المرأة كروية لأن الشكل الكروي هو الشكل الجميل المطلق، لكي نميل إليها أكثر فتحقق نتيجة عملية استمرارية النوع كما أرادت لها الطبيعة.

والحقيقة أن الشكل الكروي في الإنسان لا يقتصر على المرأة فقط وإنما على الرجل أيضا، حيث عندما يتعرض الرجل القوي لحالة تضطره بأن يستعمل عضلاته نجد بأن عضلات جسمه تأخذ الشكل الكروي أيضا أثناء تقلصها، لأن الشكل الكروي كما قلنا حيز يحتوي من المادة ما لا يمكن لشكل آخر أن يحتويها على أكثر منها، ولذلك يجب أن تتجمع ألياف العضلات بصورة كروية كي لا يشغل تجمعها مكانا كبيرا.

والفترات التي تكون فيها عضلات الرجال بصورة خاصة هي فترات الربيع أي فترات التكاثر قديما، حيث يتصارع فيها الذكور فيما بينهم والقوي صاحب العضلات الأقوى والأكثر تكورا هو الذي يقع عليه اختيار الإناث.

الإلهة عشتار ويبدو التكوير واضحا على مفاتنها، حوالي 1900 ق.م

الهوامش:

(1) – Rykle Borger, Assyrisch-Babylonische Zeichenliste, 1978, no 575, S. 196.

(2) – فيما يخص آراء سقراط وكانت ونيكولاي تشيرنيتشيفسكي، فقد اعتمدت بخصوصها على محاضرة للأستاذ رشيد ياسين بعنوان «البحث عن معنى الجمال» ألقاها في اتحاد الأدباء والكتاب العراقي عام 1985م.

(3) – Duane and Sarah Preble, Artforms, Third Edition, Harper and Row Publishers, New York, p. 106, 297.

(4) – آفاق عربية، السنة التاسعة، العدد 11، تموز 1984، ص 141-144.

(5) – د. فوزي رشيد، طه باقر حياته وآثاره، دار الشؤون الثقافية، الطبعة الأولى، عام 1987، ص 11-12.

(6) – د. عبد الرحيم بدر، الكون الأحد، قصة النظرية النسبية، دار العلم للملايين، بيروت 1962، ص 140-141.

(7) – ياكوف بيريلمان، الفيزياء المسلية، الكتاب الأول، 1970، ترجمة د. المهندس داود سليمان كرومي المنير، ص 100.